دراسة شخصية "جعفر الراوي" في رواية "قلب الليل" لنجيب محفوظ في ضوء نظريات التحليل النفسي الاجتماعي؛ لكارين هورني

الأستاذ المساعد الدكتور
روح اله نصيري (الكاتب المسؤول)
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة أصفهان- إيران
r.nasiri@fgn.ui.ac.ir

Investigating the Character "Ja'far Al-Rawi" in the Novel "Night's Heart" by Naguib Mahfouz; Based on Karen Horney's Psychological and Social Theory

Rooh Allah Nasiri
Assistant Professor of Arabic Language and Literature,
University of Isfahan

الملخص:-

"جعفر الراوي" هو الشخصية الرئيسية في رواية "قلب الليل"، الذي يفقد رعاته الأصليين وهم الأب والأم في مرحلة الطفولة. وبسبب هذا النقص، فإنّه يعاني من القلق وانعدام الأمن والعجز والرفض. إنَّ ألم الوحدة الذي عانى منه جعفر الراوي في طفولته كان له تأثير مدمّر على سلوكه في مرحلة البلوغ.

في هذا المقال، يتمّ تحليل شخصية جعفر الراوي من وجهة نظر كارين هورني، لأنَّ كارين هورني تعتقد أنَّ أحد الاحتياجات الأساسية للطفل حديث الولادة هو الشعور بالأمان والقبول من قِبل الآباء والأمهات وكذلك الآخرين من حولهم. تعتقد كارين هورني أنَّ الشعور بالرفض، وبعدم الأمان الذي يمرّ به الطفل في هذا السن وفي عالم يحفل بالتوتر والعدوانية يظهر على شكل عقدة في سن الرشد وفي مستقبل حياته؛ مثل: الانعزالية أو العدوان أو إظهار الحاجة للمحبّة.

الكلمات المفتاحية: كارين هورني، رواية "قلب الليل"، النقد النفسي.

Abstract:-

Investigating the Character “Ja'far Al-Rawi” in the Novel “Night’s Heart" by Naguib Mahfouz; Based on Karen Horney's Psychological and Social Theory

Ja'far al-Rawi is the main character of the novel “Night’s Heart ", which, in childhood, loses its main sponsors, the parent. Due to this lack, he suffers from anxiety of insecurity, helplessness and rejection. The pain of the loneliness from which Ja’far al-Rawi suffered in childhood has a devastating effect on his behavior in adulthood.

In this article, Jafar al-Rawi's character is examined from Karen Horney's psychoanalytic perspectives, because Karen Horney believes that one of the most basic needs of the baby is the sense of security and acceptance by the parents and the people around them. Karen Horney believes that the feelings of insecurity and rejection that the child experiences in this age range in adulthood as complexes such as isolationism, aggression, or affection.

Keywords: Karen Horney, Novel "Night’s Heart", Psychological Criticism.

المقدمة:

كارين هورني، وُلِدت في ألمانيا عام ١٨٨٥م، وأكملت تعلّمها في الطب والطب النفسي هناك أيضًا. وفي عام ١٩٣٢م، كانت تدرس في الولايات المتحدة كأستاذة في التحليل النفسي وكما أسَّست المعهد الشهير الموسوم بـ "معهد هورني لعلم النفس" في نيويورك، والذي لا يزال قائماً. وتوفيت في عام ١٩٥٢م. رفضت كارين هورني العديد من أفكار فرويد، بما في ذلك نظرية ليبيدو أو الغريزة الجنسية. وكانت على عكس فرويد الذي كان يعتبر السبب الرئيسي للأمراض النفسية هو قمع الغرائز الجنسية، فإنَّها تعتقد أنَّ الأمراض النفسية ترجع بصورة أساسية إلى العلاقات العنيفة والمسيئة مع الطفل. وأنَّ المعاملة التي يتلقاها الطفل لها علاقة وطيدة بنشأة القلق، فنوع العلاقة بين الوالدين عامة والأم خاصة، لها انعكاس على ظهور حالات القلق عند الطفل. عملت كارين هورني لسنوات عديدة على نظرية كيفية تأثير البيئة السلبية على بروز مشاكل الطفل النفسية.

تعدّ الأسرة من أهم العوامل المؤثرة في تكوين الاتجاهات وتشكيلها وتعزيزها لدي أبنائها، فالأسرة هي الخلية الأولى في المجتمع التي تتلقي الطفل وتسهم في بناء مجموعة من الاتجاهات ونموّها، وذلك عن طريق الرتبية والنشئة الاجتماعية بأسلوبيها الثواب والعقاب. ويعدّ الوالدان مصدرين مهمين يتشرب من خلالهما الطفل اتجاهات حياتية قيمية، مما يجعل الاتجاهات في مرحلة الطفولة ذات تأثير بالغ في حياة الأفراد، وذات استمرارية في حياتهم ومعتقداتهم واتجاهاتهم وسلوكهم، وهناك صعوبة في تغييرها (حسين، ٢٠١٢م: ١٢).

((تعتقد كارين هورني (Karn Horney) أنَّ الأمراض النفسية ترجع إلى العلاقات العنيفة والمسيئة مع الطفل. ظروف غير طبيعية في الطفولة تعيق تطوُّر مواهب الطفل وتسبِّب الاضطراب والقلق لديه، وهو ما يسمَّى بالاضطراب الأساسيbasic anxiety. الطفل في مثل هذه الشعور بعدم الأمان يقوم بالبحث عن حلٍّ؛ التحرك بالقرب من الناس وإظهار الاحتياج لمحبة الآخرين moving toward people، حبّ السيادة moving against people، والعزلة moving away from people هي ثلاثة طرق يحاول بها الطفل التخلُّص من أذي الآخرين. وكما يحاول تشكيل سلوكه بما يرضي من حوله (بهنام فر وسائرون، ١٣٩٢ش: ٢٥).

ترى هورني أنَّ الطفل يشعر بأنَّه منعزل وعاجز في عالم عدائي وينشأ هذا الشعور من اضطراب يحصل بين الطفل ووالديه، بسبب عدم وجود الحنان أو العناية الزائدة به أو التذبذب في المعاملة بين الأسلوب الدافيء والأسلوب الصارم، والرفض والقبول أو السيطرة على إرادة الطفل على نحو مباشر أو غير مباشر أو افتقاره إلى التوجه الصحيح (عبد السلام الهيتي، ١٩٨٥م: ٩٢). ويفرض هذا الشعور المضطرب على الشخص الاستجابة بأخذ أحد النماذج الثلاثة وهي: التحرك نحو الناس، والتحرك ضد الناس والهروب من الناس (عاقل، ١٩٦٨م؛ ٢٣٣).

العناد، الكراهية، وعدم التوافق كباقي العمليات العصبية الأخرى تبدأ بالطفولة. الظلم، الإذلال، السخرية، الإهمال، الكذب على الطفل؛ كل هذا يسبِّب عدم الرضا وإيجاد العناد في الطفل (هورناي، ١٣٨٧ش: ١٨٥). نجيب محفوظ خلق شخصية تُسمَّى "جعفر الراوي" في روايته "قلب الليل". يفقد أبويه في طفولته ويعيش في بيئة غير محمية؛ يعاني من فقدان السند والوحدة والاضطراب. ونتيجة لذلك الاضطراب، يصدر منه في مرحلة البلوغ سلوكيات غير طبيعية. ومن هذا المنطلق، فإنَّ المقال الحالي يسعى إلى دراسة السلوك غير الطبيعي الذي بلغه "جعفر الراوي" في سن الرشد من خلال مراجعة ظروف طفولته بالاعتماد على الآراء الناقدة كارين هورني. يفترض الكاتب أنَّ فرار جعفر الراوي من الناس يرجع إلى انعدام الدفء العاطفي في الأسرة وشعور الطفل بأنَّه شخص مرفوض في العائلة.

الأدب التنظيري:ـ

ليس هناك شكٌّ أنَّ الطفل في أي ظرف من الظروف يتأثر من العوامل المحيطة، إذا كانت البيئة المنزلية دافئة وحميمة ومبنية على الاحترام، فسوف تتمتع شخصية الطفل بنموّ صحّيّ دون أي عقد. ولكن في البيئات العنيفة وغير الطبيعية، لا يستطيع الطفل أن يكون واثقاً من نفسه؛ ولا يستطيع أن يقدر شخصيته ويحترمها (هورناي، ١٣٨٦ش؛ ٤٠ و ٤١).

تعتقد السيدة هورني أن جذر وجوهر "العصبية" يتمّ إيجادها في الطفل من قِبَلِ الأشخاص المحيطة به. أي أنَّها تضعف ثقة الطفل بنفسه والنواة الوجودية له من خلال الإذلال والإهانة، والتخويف، والظلم، والمبالغة بالعقاب، والغضب، والصرامة، وعدم

الاهتمام بنقاط الضعف الطبيعية للطفل وتوجهاته الخاصة. المشاكل النفسية والذهنية المُعَقَّدة التي تسبب في نهاية المطاف إلى تدهور حياة الشخص ترجع إلى هذه القضية الهامة(هورناي،١٣٨٧ش: ١٨٥).

تعتقد كارين هورني أنَّ جوهر "التناقض الأساسي" يأتي من البيئة المسيئة والعنيفة التي نما فيها الطفل. تَبَعًا للأضرار النفسية التي يعاني منها الطفل، فإنَّ تناقضاته النفسية تصبح أكثر كثافةً وأعمق في مرحلة النضج وتؤدّي إلى المئات من المضاعفات العصبية. يشعر الطفل بالقلق وانعدام الأمان بسبب الضعف الدفاعي الجسدي الذي يعاني منه باستمرار مقابل الحياة المليئة بالخطر والوحشة. وفي الفضاء المليء بالقلق وانعدام الأمان فإنَّ الأشخاص حول الطفل يخلقون في داخله حجمًا كبيرًا من الوحشة والقلق والاضطراب. على سبيل المثال، فالمبالغة والإجبار الذي يمارسه الأب والأم - وهو أحيانًا ما يكون صريحًا ويُشار إليه أحيانًا بالرغبة في التعليم وحسن النية والإحسان والتعاطف - عدم المبالاة وإهمال الطفل، وتجاهل احتياجاته الخاصة، وعدم التوجيه الحقيقي والصريح، المعاملة المهينة، الإفراط في الثناء والإعجاب أو التفريط فيه، عدم وجود الحب الصادق والجدير بالثقة، فصل الطفل عن ألعابه، والتمييز بين الأطفال، عدم الوفاء بالوعد، الاعتراض الزائد واللوم، وخلق بيئة العداء والحقد والخصومة، كل هذه العوامل تؤدّي إلى تفاقم الذعر والقلق وعدم الثقة والضيق والقلق والاضطراب عند الطفل (هورناي،١٣٨٧ش: صص ٢٩و٣٠).

العامل الأكثر أهمية الذي يسبِّب معظم القلق والضيق للطفل هو الشكّ وسوء الظن الذي يجده في محيطه. إنَّ مجموع الحدود غير الضرورية، الضغط وعدم الاعتدال والاجحاف، الاذلال وعدم الاهتمام بالطفل تؤدّي إلى ظهور حالة من الغضب والاضطراب العميق والدائم عند الطفل. باعتقاد كارين هورني هذا الاضطراب العميق هو الأساس والجذر لبناء العصبية.

حسين عبد الفتاح الغامدي في مقال "نظريات التحليل النفسي الاجتماعي" يصف نظرية كارين هورني على هذا النحو: هناك مجموعة من الحاجات الأساسية للإنسان أهمّها الحاجة للحب والقبول والاعتراف ثم الحاجة لتحقيق الذات. ومن هذا المنطلق ترى كارن هورناي أهمية خاصة للعلاقات الأسرية وتعتبرها الأساس في إشباع أو إحباط الحاجات الأساسية،

وتمثل خبرات الطفولة سواء كانت إيجابية أو سلبية الأساس لبناء الشخصية في المستقبل. كارن هورناي تعتقد أنَّ كفاح الفرد لتحقيق الأمن وتحقيق الذات يأخذ نمطين تبعًا لحدة القلق الذي يكون نتيجة للتفاعل بين مدي سوء الواقع الخارجي وشخصية الفرد. وتشمل: ١. نمط الكفاح السوي: تبقي حاجات الفرد الأساسية في حدود السواء ويكافح من أجل تحقيقها مع الاحتفاظ بأهدافه الاجتماعية ٢. نمط الكفاح غير السوي: حيث تتحول الحاجات إلى حاجات عصابية ملحة وتشمل: - الحاجة العصابية للحب والعاطفة والقبول؛ - الحاجة العصابية لشريك يعتمد عليه؛ - الحاجة العصابية لتحديد حياة الفرد في حدود ضيقة؛ - الحاجة العصابية للقوة والسيطرة؛ - الحاجة للاستفادة من الآخرين؛ - الحاجة العصابية إلى الاعتراف؛ - الحاجة العصابية للإعجاب؛ - الحاجة العصابية للإنجاز؛ - الحاجة العصابية للكفاية؛ - الحاجة العصابية للكمال (الغامدي، لا.ت؛ ٢).

وتَبَعاً لهذه الحاجات العصابية يسلك الإنسان العصابي أساليب سلوكية غير صحيحة أو عصابية نذكرها فيما يلي:

١- " الخضوع والتحرك بالقرب من الناس ": وتتمثل في سلوكيات نحو:(التقبل والحب، التواضع والتعايش، إيجاد شريك أو قرين).

٢- "الانسحاب والتحرك بعيدًا عن الناس ": وتتمثل في سلوكيات نحو:(التكبر، الإعجاب، بلوغ أعلى درجات الكمال).

٣- "العدوان والتحرُّك ضد الناس ": وتتمثل في سلوكيات نحو: (السلطة والنفوذ، الهيبة، الاعتبار، الانجاز الشخصي).

إن الأشخاص العصابيين والأسوياء يعانون من أنواع الصراع نفسها لكن الفرد السوي يمتلك مرونة في الانتقال من أسلوب إلى آخر بحسب ما تتطلبه الظروف، في حين يكون الفرد العصابي متصلبًا يواجه جميع المواقف بأسلوب واحد (حسين، ١٩٨٨م: ٥٢).

بما أنَّ "جعفر الراوي" أظهر سلوكًا انعزاليًا ففي هذه الرواية سنواصل شرح أفكار كارين هورني حول الانعزالية. يحاول الشخص العصبي الابتعاد عن ميدان الحياة والصراعات الداخلية كحلٍ للعزلة. كما يحاول أن يجعل نفسه غير مهتم حول رغباته

الداخلية واحتياجاته. يلجأ الشخص العصبي إلى العزلة حتى يخلق نوعًا من الهدوء في داخله. لذلك فإنَّه يتجنب المشاركة والتفاعل في الحياة. الشخص الذي يختار العزلة لا يتحمل مسؤولية التقدم في حياته ويتردد في تجربة أي نوع من النجاح في الحياة. ليس لديه أي مخطط أو برنامج مكتوب لمستقبله، وبالتالي يحدّ من طموحاته وأمنياته (هورناي، ١٣٨٧ش: ٢٣٩). مثل هذا الشخص يظهر مقاومة قوية لأي نوع من الضغط والإجبار الخارجي وأي قيود ومتطلبات. هذه السمات واضحة في سلوك "جعفر الراوي" في رواية "قلب الليل". والتي يتم استكشافها وشرحها في هذه المقالة.

ملخص رواية "قلب الليل":ـ

في هذه الرواية يصف نجيب محفوظ سيرة حياة "جعفر الراوي" وفترات حياته المختلفة وهو الشخصية الرئيسية في القصة. فَقَدَ والده في طفولته، وبينما كان يعاني من اليتم في الرابعة من عمره خسرت والدته أيضاً. يؤدي فقدان "جعفر الراوي" لأمّه وأبيه بالطفولة إلى تجربته للخوف من البيئة والقلق والشعور بالوحدة. يذهب إلى منزل جدها بعد وفاة والدته. جدّه رجل دين يهتمّ بالدين والسياسة. وبالتالي يرسل "جعفر الراوي" إلى جامعة الأزهر. جعفر الراوي، بسبب الأوجاع النفسية والأزمة التي مرَّ بها بعد موت أبيه وأمه طفلاً، لم يستطع إقامة علاقة صحيحة مع الجد. روحه المتمردة لا ترتاح في غرفة بيت الجد. إنَّه غير راض عن الحياة المعتادة، لذلك يترك الجد ويخطو في طرق محفوفة بالمغامرة والخطورة. يتعرف جعفر خلال هذه المدة إمرأة غجرية لا أصل ونسب لها اسمها "مروانه" ويعشقها بجنون. إنَّ معارضة الجد لهذا الزواج لم تفيد، ودفعت "جعفر الراوي" أن يتخلى عن الجد إلى الأبد وبعد ذلك يتخلى عن التدين والأخلاق وكما قال فإنَّه يختبر المغامرة والعاطفة والدم. وبتوظيف "جعفر الراوي" في مجموعة الأوركسترا، يغرق بتعاطي المخدرات واللهو مع "مروانة". بعد أن استيقظ من جنون الحبّ، شَعَرَ بكرهه لمروانة وانفصل عنها، ولقد أعربت امرأة نبيلة ومتحضرة تُدعَى"هدي صديق" عن اهتمامها به وبالتالي حوَّلت حياته بشكل عام. إنَّها تحاول أن تجلب جعفر إلى العالم المتحضر المتمدن وتشجعه على مواصلة الدراسة والتعلُّم.

في ظل التعقُّل يشعر "جعفر الراوي" باستقلاله وهدوئه ولكن العقل يخونه أيضًا وعندما

ترتقي النقاشات السياسية يقوم صديقه محمد شكرون بالخفاء بتحريك سوء ظنه تجاه معلمه "سعد الكبير" و"هدي صديق". وأثناء معارضته للأفكار السياسية لاستاذه سعد الكبير يتحول ذلك إلى صراع يؤدّي به في نهاية المطاف لقتل المعلم ويقوده إلى السجن. بعد مغادرة السجن يرى أنَّ الوقت قد غير كلَّ شيء وذهب قصر جده، وليس هناك أخبار عن جده وأصدقائه وزوجته وأطفاله.

تحليل شخصية جعفر الراوي من وجهة نظر كارين هورني:-

يشير روجرز إلى أنَّ الذات تنبع من التقدير أو الاحترام الإيجابي منذ مرحلة الرضاعة، وينشأ التقدير أو الاحترام الإيجابي عند قبول الطفل كما هو. وأشار إلى أن الحاجة إلى التقدير الإيجابي تشمل: الدفء والحبّ، والاحترام، والتعاطف، والقبول، وقد عدَّها حاجة شاملة لدي كل البشر وتظهر على شكل الحاجة إلى الحبّ والتعاطف الوجداني (غازي، لا تا: ٢٨٨).

بما أنَّ "جعفر الراوي" فقد أباه أولاً ثم أمَّه في طفولته، فهو لم يحصل على احتياجاته العاطفية كما يجب. المحادثة التي تبدأ بها الرواية بين "جعفر الراوي" وصديقه تمثل عمق معاناته وبؤسه:

((تودّ أن تعرف كيف مات أبي؟ أستيقظ في الظلام فأنتبه إلى أنَّ أمي تحملني بين ذراعيها وتغادر بيتنا إلى بيت جارتنا، ولا شكَّ في أنَّ النوم غلبني، ولما أستيقظ في الصباح أجدني في مكان غريب فأبكي... وأرجع إلى بيتنا في نفس اليوم ليلاً أو في اليوم التالي فألقي جوّاً غريباً وكئيباً يفشي سرّاً أليماً، تصيبني منه وحشة وقلق مبهم، ها هي ذي أمي، ما أشدَّ تغيرها! جلبابها أسود، وجهها مريضٌ شاحبٌ، نظرتها خابيةٌ وذابلةٌ، فقد البيت مناخه النقي ومرحه الأصيل. إنّني أعامل معاملة جديدة لا تخلو من جفاء وقلة اكتراث، أمّي تهرب منّي، وهي تبكي من وراء ظهري)) (محفوظ، ٢٠٠٦م: ١٥و١٦).

بالإضافة إلى ذلك، يفقد "جعفر الراوي" والدته في السن الرابعة بعد وفاة والده، وهذا يؤدّي إلى تفاقم أزمته النفسية. مما لا شكَّ فيه أنَّ العديد من المشاكل النفسية التي يواجهها البالغون ترجع إلى فقدان مودة الأمهات التي عاني منها الشخص العصبي في طفولته. هذا النقص في المودّة يجعل الطفل ينمو بشكل غير طبيعي. الطفل الذي لم يتمّ توفيره عاطفيًا في البيئة الأسرية كلَّما كبر سنًا وانغمس بالمجتمع، تصبح مشكلاته النفسية أكثر تعقيدًا وأكثر

حدةً، مما تؤدّي إلى مزيد من الأذى النفسي للطفل.

وفي نفس السياق، يصف "جعفر الراوي" وفاة والدته عندما كان في سن الرابعة: ((استيقظتُ ذات صباح وحدي دون أن توقظني أمّي كالعادة. أدركتُ أنني استيقظتُ وحدي عندما وجدتُها مستغرقة في النوم، راقدة على وجهها، وسرَّني جدّاً أن أوقظَها ولو مرةً في حياتي الصغيرة. قربتُ فمي في أذنها وناديتُها، مرةً ومرةً وهي لا تستجيب، حرّكتها بلطف مكرراً النداء، ارتفع صوتي واشتدّ تحريكي لها ولا مجيب، وأصررتُ على إيقاظها، وتماديتُ في اصراري حتى ملأ صوتي الحجرة بلا أدني نتيجة، ويئستُ تماماً فانزلق من الفراش وغادرتُ الحجرة... وهرولت الجارة إلى أمي وانكبت فوقها وأنأ واقف عند الباب، وما لبثت أن ضربت صدرها بيدها وهتفت: يا خبر أسود يا أم جعفر.... وقضيت في بيت جارتنا يومين كانا أسوأ أيام عهد الأسطورة - الطفولة - (محفوظ، ٢٠٠٦م: ٢١و٢٢).

نرى أنَّ حزن جعفر الراوي نتيجة فقدانه لأمّه قد آذي نفسيته وقد حمل هذا الحزن طوال حياته. ((لقد ذهبت أمّي، ولكنَّها أورثتني دينها ومأساتها، وسوف يرسبان في جانب من نفسي طويلاً، وربما أطول مما تصورتُ)). (محفوظ، ٢٠٠٦م: ٣٤).

"جعفر الراوي" يعيش مع جدّه بعد أن يفقد والديه. على الرغم من أنَّ الجدّ شخص متدين وثري وحنون، إلا أنَّ جعفر الراوي بسبب التجارب المريرة لفقدانه والديه في طفولته وبسبب شخصيته العصبية لا يحسّ بمتعة الحياة عند الجد. وتعاني نفسيته من الكآبة وتكافح باستمرار للدخول في العواطف والمغامرات المليئة بالخطورة لربّما تهدّئ من نفسيته وتنقذها من الحياة اليومية. ولكن المشكلة هي أنَّه كلما سار في هذا الطريق يقع في متاهات وأزمات أكثر.

الأشخاص العصبيون الذين عانوا من العدوانية وانعدام الأمن في طفولتهم هم من يسعون وراء المشاعر الجنسية بولعٍ وحرص، يتمّ تحفيزهم بسرعة، ولديهم شغفٌ هائلٌ للأفعال الهيجانية. يجب القول أنَّ هذا ليس حماسًا حقيقيًا، بل إنَّه لتسكين العُقَد العاطفية (هورناي، ١٣٨٧ش: ١٥١). وتُري هذه السلوكيات العاطفية والمثيرة في سلوك جعفر الراوي. وفي حين ذهابه وأيابه يلتقي بابنة راعية وبالرغم من أنَّها كانت تغطّي وجهها بالكامل فقد عشقها جعفر الراوي وانتهي به المطاف إلى أن تخلي جده وحياته الهادئة

وتَبَعًا لذلك الحبّ السخيف يدخل في مغامرات وأخطار لا نهاية لها. ويواصل مغامراته وعناده وعلى الرغم من معارضة جده فإنَّه يتزوّج تلك الفتاة غير معروفة الأصل التي تدعي "مروانه".

((كنتُ أسير بصحبة محمد شكرون في أطراف الدراسة عندما أقبلت علينا قافلة من الأغنام تقودها امرأتان. تنحينا جانباً لنوسع للقافلة، رأيتُ المرأتين، وهم أم وأبنة غالباً، صورة واحدة متكررة، ترتدي جلباباً أسود، متمنطقة بزنار، حافية القدمين، ومتلفعة بشال أسود، وبرقع فضفاض تطل من فوق حافته العينان، وباليد مغزل... لقد نظرتُ إلى عيني الفتاة فاقتحمني الجنون الكامل...)) (محفوظ، ٢٠٠٦: ٤٦و٤٧).

واحدة من أهمّ خصائص الأشخاص العصبيين هي أنَّ سلوكهم لا يتكيّف مع العادات المشتركة في مجتمعهم. على سبيل المثال، الشخص الذي يعمل في مؤسسة لكنَّه لا يظهر أي اهتمام في الحصول على راتب أفضل أو ارتقاء مرتبة بالعمل، فإنَّنا نعتقد أنَّه عصبيٌّ (هورناي، ١٣٦٩ش: ١٧). وقد شوهدت هذه الخصلة أكثر من مرة في سلوك جعفر الراوي. على الرغم من فقره الفقير فإنَّه يعتبر نفسه بلا حاجة لميراث جدّه القيم في حين لا يوجد وريث آخر غيره. يتزوج "جعفر الراوي" متجاهلاً ومتعارضًا لنصائح جده بفتاة ليس لديه أي معرفة بها وبماضيها. وهكذا يقع في فخ الزواج لتخفيف الميل للشهوة ولكن هذا الزواج يؤدّي إلى انهيار العائلة في نهاية المطاف ويزيد من أزمته النفسية. لكن زواج "جعفر الراوي" الثاني انتهى بالانفصال بالرغم من أنَّ زوجته كانت شخصاً ثريًا ونبيلًا وسعت من أجل تطوير جعفر الراوي. من هنا، نستنتج أنَّ "جعفر الراوي" لا يستطيع التكيّف مع الآخرين في مرحلة رشده ولايستطيع إقامة علاقة مستقرة ومتوازنة مع من حوله بسبب طفولته المنهارة التي عاشها بعد أن فقد الداعمون الاصليون له بطفولته.

الأشخاص العصبيون، حتى لو كانوا يكسبون الفخر والمجد والثروة، ولكن لا تُعطيهم أي منها الشعورَ بالسلام الداخلي والسرور بسبب العقد النفسية التي مرّوا بها، فإنَّهم فقدوا الاعتماد بالنفس وعزّتها لذلك فهم غير قادرين على الاستفادة من النعم المتوفِّرة لهم (هورناي، ١٣٨٧ش: ٢١).

ولذلك حتى لو كان لدى الشخص العصبي إمكانيات مادية ومرفه، فإنَّه يعاني أيضًا

من الشعور بالسخافة وعدم الجدوى والإحباط. كما كان يعاني جعفر الراوي من مثل تلك العُقَد بالضبط. إذ كان بوسعه الاستفادة من التسهيلات التي أعطاها إياه جدّه، لكنَّه عانَدَ جدَّه ولم يتعايش معه. إنَّه يغضّ نظره عن ثروة جده العظيمة ويرفض الزواج من فتاة نجيبة عرضها عليه، ويتّجه في طريق مليئ بالأحداث حيث تسوء حالته تدريجيا ويحتدّ ضياعه واضطرابه. وهكذا يشرح جعفر الراوي قصة حياته في الرواية: ((كانت تمرّ بي ساعات سوداوية، تتسلل إلى من مكامنها فتغير مذاق الحياة، وتغشاني سحب الذكريات السود، فأفكّر بحياة النفي التي عاناها أبي، ومأساة أمّي ذات التاريخ الغامض المجهول، وعند ذلك يثور غضبي على جدّي، وأحاسبه في الخيال حساباً عسيراً)) (محفوظ، ٢٠٠٦: ٤٣).

عندما نَضَجَ "جعفر الراوي" صار شخصًا غير متأقلم مع الآخرين، بسبب القلق وعدم الأمان الذي قد عاني منه في مرحلة الطفولة، ويرفض نصائح جدّه الذي يريد بها مصلحته. قد صوَّرَ نجيب محفوظ الخلاف بين الجد و"جعفر الراوي" في اختيار الزوجة المستقبلية في المحادثة التالية:

((وفي حومة الأفكار المتضاربة نشب الحوار بيني وبين جدي، في حلم أو في هذيان الليل أو بين النوم واليقظة لا أذكر. جعفر الراوي يخاطب جده قائلًا:

- جدي! إنّي أرفض.

- ترفض نعمتي؟

- أرفض القهر.

- ولو كان منّي؟

- ولو كان.

- أنت عاق، تخون الجمال والنقاء، في سبيل ماذا؟

- الحرية!

- راعية الغنم. (يعني الزواج مع راعية الغنم).

- الدم والتشرد والهواء النقي.

- إنَّه الجنون الذي يخرج به المسوسون من بيتي العتيق.

- النعيم الحق في الجنون.

- إنَّك ابن والديك.

- وإنِّي اعتزّ بذلك إلى الأبد.

- نصفك يودّ الانتقام منّي.

- لا أريد أن أفكر فدعني أفعل.

- والجبة والقطان؟

- سأخلعهما من توّي.

- إذن كفرتَ؟

- لا أريد الدين مهنةً.

- ماذا تريد أن تفعل؟

- أريد أن أمارس الحبّ والجنون والقتل.

أعتقد أنني عبّرت بهذا الحوار عن الحال التي كنت أعانيها تعبيراً كاملاً (محفوظ، ٢٠٠٦: ٥٤).

قام نجيب محفوظ بتصوير جعفر الراوي شخصًا لم يرَ أيَّ نوع من الحبّ، وبسبب الوحدة جذب لأوّل ابتسامة ولطف مرسومة إليه. ((كان جعفر الراوي في وحدته على استعداد حاد للالتصاق بمن يشجعه ولو بابتسامة. سألتُه بعد أن تناولنا عشاءنا من الكوارع في شارع محمد على: - كيف تعيش يا جعفر؟ - أ تخبط في الشوارع نهاراً وحتي منتصف الليل؟ - وأين تسكن؟ - أبيت في الخرابة. - الخرابة؟!...)) (المرجع نفسه: ص٩).

على نفس المنوال نري جعفر الراوي ملهم وعاشق لفتاة بلا اصلِ ونسب لا يعرف شيئًا عن ماضيها وليس لديهما أي مقومات مشتركة للزواج. تُظهر المحادثة التالية أنَّ قرار "جعفر الراوي" بالزواج من هذه الفتاة لم يكن قراراً صالحًا: ((- ماذا دهاك؟ - لا أفهم. - ليكن،

إنّي مجنون بالبنت. - أ يحدث ذلك بهذه السرعة؟ - لقد حدث. - ولكنّها راعية ومن بيئة شريرة. - إنّه قضاء لا مفرّ له)). (المرجع السابق: ٤٨) عندما لا ينعم الطفل بالمحبّة الأسرية الصادقة فتظهر فيه شخصية مهزوزة مستعدّة للانجرار وراء إلى أي نوع من المحبة في المجتمع ولا يمكنه التمييز بين المودّة الصادقة والمنافقة.

العصبية، تعني أنَّ الشخص المريض لديه الكثير من السعادة والرفاهية، ولكنَّه دائماً حزين. وبعبارةٍ أخرى، فإنَّ الشخص العصبي دون إرادته وعلمه أو بما يصحّ القول بالقسر يشكل في حد ذاته عوائق لسعادته (هورناي، ١٣٦٩ش: ٢٥). كل هذه العلامات تُشاهد في جعفر الراوي. إذ مهما يمكن له العيش مع جدّه الثري لكنَّه يتخلى عنه وجميع الامكانات بأعذارٍ واهية قائلًا إنّني أُفضّل المغامرة والهواء والرغبة والدم على الحياة اليومية الروتينية. يجسّد نجيب محفوظ هذه الميزة لجعفر الراوي في المحادثة التالية:

((وعندما أفضيتُ بأسراري إلى محمد شكرون وذهل تماماً ولم يصدق أذنيه، ولما وجد منّي الجدّ كل الجد سألني: - هل ترفض حقاً ما عرضه جدّك عليك من أجل "مروانة"؟ - فأجبتُ بالإيجاب. - أتترك البيت من أجل راعية الغنم؟ - نعم. - ما معني ذلك؟ - اعتبرني مجنوناً إذا شئت. - ألا تخشي أن يحرمك ميراثك وتجد نفسك شحاذاً؟ - هذا محتمل. - يمكن أن تبقي في رعاية جدّك وأن تواصل دراستك وأن تمارس حبّك الجنوني. - كلّا كلّا إنّها أشياء متنافرة جداً وقد اخترتُ. - اخترتَ ماذا؟ - سأهجر البيت والأزهر. - لا ضرورة لذلك. - بل ضروري جداً، إنَّها حياة جديدة، المغامرة أفضل الجنون أفضل)) (محفوظ، ٢٠٠٦: صص ٥٥-٥٦).

إنَّ العزلة والانقطاع عن الناس والأسرة هي إحدى خصائص الأشخاص العصبيين الذين لم يروا الحبّ والأمان أثناء طفولتهم. وعلى نفس المنوال نلاحظ أنَّ "جعفر الراوي" سئم من زوجته "مروانه" قسراً عنه. ذلك بالرغم أنَّه انفصل عن جده من أجل حصوله على هذه الزوجة منذ زمن قليل: ((سعادتي فقد غطت على النجاح ولي كلّ شيء، سعادتي الزوجية، وكنتُ بها فخوراً... - حقّاً كانت توجد لحظات خائنة حتى في أيام السعادة الخالصة. - ولكن ما هي اللحظات الخائنة؟ - هي اللحظة التي تنفصل فيها عن تيار حياتك فتقف على ربوة فوق الشاطيء لتراقبه بشدة. في تلك اللحظة كنتُ أشعر بأنَّ ثمة شخصاً قد

ضحك على، قد جرعني مقلبا. وأسأل نفسي عمّا حدث. أو أنظر إلى مروانة بذهول وأجد رغبة طارئة للانتقام. - ما معني ذلك؟ - كأنّي أمقتها فجأة وبلا مقدمات.... لقد دخلتُ منطقة اليأس!... كان لي أحلامي الخفية، كنتُ أحلم بالهروب من الواقع، من البيت، أحلم بالتوحد فحتي أولادي كانوا يختفون من رؤيا الحلم)) (المرجع السابق: صص ٦٥-٦٨).

بسبب الظروف البيئية غير المؤاتية التي عاشها "جعفر الراوي" في طفولته تجذرت في نفسيته مشكلتان معقدتان وهما القلق الأساسي والتناقض الأساسي وأخلت بتوازنه النفسي. بما أنَّ الحاجة الأكثر أهمية للطفل في البيئة المرهقة هي تخفيف القلق وحل النزاعات والحصول على الراحة النفسية فهو لا يهتم بمشاعره وميوله ورغباته ومصالحه الأساسية. هناك شيءٌ واحدٌ فقط مهم بالنسبة للشخص العصبي وهو كيف يحمي نفسه من إذي الآخرين. لذلك فإنَّه لا يظهر ميوله وإحساساته الأصلية في علاقاته مع الآخرين ويظهر خصوصية وشعوراً زائفاً لتجنب اضطهاد الآخرين. يستخدم "جعفر الراوي" نفس الأسلوب لإبعاد نفسه عن الأشخاص المحيطين به. فهو يختار العزلة للتخلص من البشر، حتى لو كان الناس من حوله هم الجدّ والزوجة والأولاد والأصدقاء. ((فكرتُ في الأولاد طويلاً، أيقنتُ أنَّه لا حياة لهم معي...)). (المرجع نفسه: ٧١).

قد أكّدت كارين هورني أنَّ اضطرابات الطفولة سيتبعها اضطرابات في مرحلة الرشد. ومن هذا المنطلق نري اعتراف جعفر الراوي بـ: ((وبضياع الأولاد تسلل الأسي إلى أعماق نفسي ليقيم في حجرة الأحزان ملتحماً بذكريات أمّي وأبي...)) (المرجع نفسه: ٧٢).

أنَّ الشخص العصبي والغريب على نفسه، غير قادر على حمل المسؤولية. وهو يعتبر الآخرين مسؤولين عن إنزعاجاته ومشاكله ولا يشعر أنَّه يحتاج أيضًا إلى اتخاذ خطوة لحلّ المشاكل (هوراني، ١٣٨٧ش: ١٥٦). وكذلك نري أنَّ جعفر الراوي يعتبر جدَّه مسؤولًا عن تشرُّد والديه وبالتالي مسؤولًا عن معاناته في الطفولة. وباتخاذه لهذه الذريعة يواصل عناده مع جدّه تاركاً حياة الهدوء والخالية من القلق بجوار جدّه وذهب باتجاه المغامرات الخطيرة.

الناس العصبيون مليئون بالعناد والعنف وعدم التعايش. وخلافًا للإنسان السوي الذي يُظهر في الحالات المختلفة ردود الفعل مناسبة لتلك الحالة الخاصة ويتكيّف مع وضعه الخاص، ولكن ردة فعل الناس العصبيين هو نفسه في الحالات المختلفة وهو عمومًا جامد

وغير متهاون. وعلى هذا النسق نرى أنَّه عندما يطلب صديق جعفر الراوي منه أن يتوب عن ماضيه ويعود إلى جده لكي تتحسن حياته أخيراً يعود يعاند ويقاوم: ((- آنَ لك أن ترجع إلى جدّك. - قلت: لقد انتهي الشيخ جعفر الراوي. - يمكن أن يبدأ من جديد، علينا أن نحاول. - إنّي أرفض المحاولة. - عن كبرياء؟ - بل عن تسليم بالواقع الحيّ. - أي واقع يا رجل؟ - الحياة التي رسمها جدّي لي مرفوضة تماماً...)).(محفوظ، ٢٠٠٦: ٧٢) حتى بعد كل ما حصل، عندما يطلب منه صديقه أن يعود إلى الجد، يرفض ذلك ويقول: أبقي متشرداً، ولكن لن أعود إلى منزل الجد.

العدوان في علم النفس التقليدي يبدو كشكل من أشكال الغريزة البيولوجية المسماة المحافظة على الذات. وكثيراً ما يذهب الناس إلى مثل ذلك الرأي من ناحية العدوان في الإنسان. وهم يقولون بأنَّ السلوك العدواني لا يظهر إلا إذا كانت مناشط حيوية الشأن للبقاء تصطدم بمقاومة. على أن مكتشفات التحليل النفسي مع ذلك، تجعل الإنسان منّا على شيء من الشك في أي قانون ساذج يصاغ عن السلوك العدواني من حيث فائدته البيولوجية؛ على سبيل المثال تصرفات جعفر الراوي العدوانية مع صديقه ومناقشته معها حول موضوع بسيط تتعلق بالظواهر المحزنة: السادية والمازوخية، والكراهية والغيرة والعنف (أ. ل. زانجويل، لا تا: ١٥٠).

تبدأ مرحلة جديدة من حياة جعفر الراوي. يدخل مرحلة التعقل ثم السياسة. لكن هذه الخطوة لم تتمكن أن تعيد له الهدوء والثقة النفسية. لا يمكن لأي أيديولوجية ولا طريقة جديدة للحياة أن تهدأ النفسية القاهرة المضطربة لجعفر الراوي. لا يستطيع جعفر الراوي في مرحلة عمره السياسية أن يظهر سلوكًا حكيمًا وبعيد المدي. ومن ثم فإنَّه في نزاع حول قضية سياسية لا يستطيع السيطرة على نفسه ويقتل أستاذه. ((كنّا مجتمعين في مكتبي - أنا وسعد كبير - منفردين، وجري الحديث، حاداً من ناحيته كالعادة وحاداً من ناحيتي على غير العادة... قال ثائراً: إنَّك تتوهم أنَّك صاحب مذهب ميتافيزيقي اجتماعي سياسي. - وصحتُ به على غير توقّع منه. - وقح... قليل الأدب. - نظر إلى بذهول وتمتم: - ماذا؟ - فصحتُ بإصرار: - وقح... قليل الأدب! - فتساءل بحنق: - أنسيتَ أنَّك تخاطب أستاذك؟ - وثبتُ عليه. لطمته، لكمني، اشتبكنا في صراع مخيف، لم يوجد من يخلّص بيننا، كنتُ

أقوي منه وكان أكثر شباباً، ولمّا بدأتُ ألهث تناولت قطاعة الورق. صورة وجهه لا يمكن أن تنسي، أعني بعد أن غرزت النصل الحاد في عنقه، وجهه وهو ينطفيء هابطاً إلى قرارة الظلمة، وهو يتخلي عن المعركة ويستسلم للمجهول، وهو يتخلي عن الجدل والذكاء والمجد وكل شيء...)) (محفوظ، ٢٠٠٦م: ١١٠).

كما ذكرنا سابقاً، وفقاً لنظرية كارين هورني الشخص العصبي الذي لم يحصل على المحبّة في طفولته فإنَّه يتبع ثلاث تقنيات في سنّ الرشد للهروب من القلق النفسي: "العزلة"، و"العدوان"، و"إبراز الحاجة للمحبة". تعتقد كارين هورني أنَّ الشخص العصبي يستخدم إحدى هذه الطرق الثلاثة بشكل مباشر ويستخدم الطريقتين الأخريين بشكل ضمني وغير مباشر. هذا بالضبط ما حصل لجعفر الراوي. أي إنَّه و إن كان معتاداً باستخدام تقنية "العزلة" وقاطع الناس والمقرّبون لديه، قد استخدم أسلوب العنف والعدوان في وضع معين فقتل أستاذه. يجهل الناس العصبيون عطشهم للتفوق والانتقام وهم يسيئون فهم رغبتهم الحقيقية في التقدم والنمو، ويحاولون تبرير هذا العطش للانتقام. جدل جعفر الراوي وأستاذه يعتبر مثالًا واضحًا على هذا السلوك غير الطبيعي، مما أدّي في نهاية المطاف لقتل أستاذه.

بعد أن قتل جعفر الراوي استاذه، تخلت عنه زوجته الثانية، وبالتالي تخلى عنها أبناؤها أيضاً. قد وصف جعفر الراوي تتمة حياته على النحو التالي: ((كلما ازداد عمري، نسيتُ والدتي، وكل الناس من حولي أيضًا نسوني)). على الرغم من أنَّ الجد قد قدم لجعفر الراوي كل امكانات الحياة المرفهة، فهو يعاند الجدّ ولايتعايش معه وتَبَعًا لروحه الخارقة يترك الحياة الهادئة لتجربة مغامرات خطيرة. وهكذا يفقد جعفر الراوي بالإضافة إلى جدّه، عائلته وأصدقائه أيضًا، ومرة أخرى يجدّد وحشة الطفولة وحزنها في نضجه.

النتيجة:ـ

بسبب أذي المحيط، وخاصة في الطفولة، يواجه الفرد نوعًا من الخوف الراسخ والمستمر من البيئة والناس. هذا الخوف هو نوع من القلق الدائم والخفي الذي لديه القدرة على البقاء مع الشخص حتى نهاية حياته. وبما أنَّ "جعفر الراوي" في طفولته لا يخسر والده فحسب بل أمّه أيضاً فقد واجه نقصًا وصعوباتٍ شديدة التي تبلورت عندما نضج كسلوك غير طبيعي وبالشكل "العزلة" و"العدوان" وعدم التكيّف.

ووفقًا لنظرية هورني، فإنَّ الصراعات النفسية لجعفر الراوي ليست جوهريَّة، ولكنَّها نشأت من مواقف اجتماعية غير مرغوبة فيها. بسبب الحرمان الذي عاشه جعفر الراوي في طفولته وعلى الرغم من أنَّ لديه كل إمكانيات الحياة في مرحلة النضج إلا أنَّه كان يشعر بأنه سخيف وفارغ. وهو لايستطيع استخدام إمكانيات الحياة المتاحة بشكل طبيعي لذلك فهو يبحث عن مغامرات خطيرة ومليئة بالحيوية لتهدئة روحه المتمردة لكنه يزيد من أزماته.

خلافاً لنظرية فرويد وهو أنَّ العُقَد الجنسية هي سبب السلوك غير الطبيعي، نرى وفقاً لنظرية كارين هورني أنَّ الحالة الاجتماعية غير المرغوب فيها - وليس الاحتياجات الجنسية - قد جذبت جعفر الراوي إلى الصراعات النفسية.

في بعض الأحيان، إذا كانت البيئة الاجتماعية وثقافة الناس غير صحيحة ومسمومة، فإنَّ هذه الثقافة تشكل نظام المعتقدات غير الصحيحة في أفراد ذلك المجتمع ويجعل من المستحيل على الناس في هذا المجتمع التعرُّف على قدراتهم القصوى واستخدامها.

في نهاية المقال، واستناداً إلى نظرية كارين هورني يجب القول: إنَّ أهمَّ المتطلبات الأساسية لكل إنسان هي أن يكون لديه طفولة سليمة. إذا رأى الشخص العنف والحرمان أثناء الطفولة ممن حوله، فسوف يصبح شخصية عنيفة أو منعزلة أو محتاجة لعطف الآخرين في مرحلة النضج. لذلك، فمن الضروري أن يكون الطفل محاطًا بظروف مملوءة بالمرح والدفء العاطفي للإنسان بحيث يكون لديه نمو نفسي سليم يقيه من ارتكاب سلوكٍ عنيفٍ وغير طبيعي في سنّ الرشد.

قائمة المصادر والمراجع

- أ. ل. زانجويل؛ مدخل إلى علم النفس الحديث؛ ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد؛ دار النشر الالكتروني.
- بهنام فر، محمد و سائرون؛ " نقد روانشناختي ديگر سياوشي نمانده بر مبناي نظريه كارن هورناي؛((النقد النفسي لـ - ما تبقي سياوش - قائما على نظرية كارين هورناي))؛ مجله ادبيات وزبانها (مجلة الأدب واللغات)؛ الخريف والشتاء؛ العدد ٦٩؛ ١٣٩٢ش؛ صص ٢٣-٤٢.

- صديق، حسين؛ الاتجاهات من منظور علم الاجتماع؛ مجلة جامعة دمشق؛ المجلد ٢٨؛ العدد ٣+٤-؛ ٢٠١٢م.
- صالح، قاسم حسين؛ الإبداع في الفن؛ مديرية دار الكتب للطباعة والنشر؛ جامعة الموصل؛ ١٩٨٨م.
- عاقل، فاخر؛ مدارس علم النفس؛ بيروت؛ لبنان؛ دار العلم للملايين للنشر؛ ١٩٦٨م.
- غسق غازي العباسي؛؛ " الشخصية المتكلفة وعلاقتها بالحاجة إلى الحبّ "؛ مجلة البحوث التربوية والنفسية؛ العدد ٣٢؛ الكلية التربوية المفتوحة؛ معهد إعداد المعلمين؛ لا تا؛.
- محفوظ، نجيب؛ قلب الليل؛ القاهرة؛ دار الشروق؛ ٢٠٠٦م.
- هورناي، كارن؛ عصبانيت‌هاي عصر ما؛ (غضب عصرنا) مترجم: ابراهيم خواجه نوري؛ طهران؛ نشر: شرق؛١٣٦٩ش.
- هورناي، كارن؛ خودكاوي: (معرفة النفس): مترجم: محمد حجعفر مصفا؛ طهران؛ نشر: بهجت؛١٣٨٦ش.
- هورناي، كارن؛ عصبيت و رشد آدمي: (العصبية والنمو البشري): مترجم: محمد حجعفر مصفا؛ طهران؛ نشر: بهجت؛١٣٨٧ش.
- الهيتي، مصطفي عبد السلام؛ القلق دراسات في الأمراض النفسية الشائعة؛ ط ٢ بغداد؛ العراق؛ مكتبة النهضة للنشر؛ ١٩٨٥م.